تعليمية اللغة العربية في الجزائر
دراسة نقدية في المناهج و الوسائل و المحتويات

د. رزيقة طاوطاو

تعد اللغة عنوان للوجود و الهوية و مقوم الانتماء إلى المنابع و الأصول،و هي المستودع الأمين الذي تنهل منه ذاكرة الشعوب،فلن تتحقق أية نهضة رشيدة بمعزل عن إعادة النظر في طرائق تعليمية اللغة من حيث المنهج و المحتوى و الأهداف و الأدوات .

و لا تزال تطرح حاليا في الجزائر بعد مسيرة أكثر من نصف قرن منذ الاستقلال عدة مشكلات تتعلق بتعليمية العربية،و لعل ما يعانيه ناشئتنا في مراحل تعليمهم المختلفة من ضعف عام في لغتهم مدعاة لفتح ملف تعليمية لغتنا العربية الجميلة.

لذلك سنروم من خلال هذا الفضاء البحثي التعرض إلى واقع تعليمية العربية في الجزائر من خلال تناول طبيعة الطرائق المنهجية المعتمدة في المؤسسة التعليمية منذ الاستقلال إلى يومنا هذا،و طبيعة الوسائل و الأدوات المعتمدة في ذلك،مع محاولة الكشف عن الأسباب الرئيسة التي أسهمت في تدهور عملية اكتساب العربية،واقتراح بديل للطرائق السائدة ،والتي أثبتت من خلال الواقع قصورها ثم فشلها،و سنسعى للإجابة عن هذه الأسئلة :

× هل يمكن تبيئة المناهج و المقاربات الغربية في تعليمية العربية ؟
× ما مدى توفر مكونات العمل التعليمي المتكامل و الناجع في الجزائر ؟
× ماأهم العراقيل التي حالت دون نجاح عملية تعليم اللغة العربية في الجزائر؟ و هل يمكن اقتراح حلول و بدائل جذرية ناجحة ؟
× ما مدى تحقق الانسجام في الجهود العربية في مجال المحافظة على اللغة العربية و تعليمها وتطويرها ؟

قبيل تناول طبيعة مناهج تعليمية اللغة العربية في الجزائر و محتوياتها و وسائل تعليمها،لا بد أولا من أن نتوقف عند بعض المنحنيات و من بينها التعليمية ، و ماهية اللغة،ثم لا بد من البحث في طرائق التعليم و مظاهره في القديم و المعاصر لأننا حين نتكلم عن القديم و الجديد ، لا نعني أن القديم خطأ دائما ، و لكن فقط لأن الجديد يعطي تفسيرات أوسع للعالم،و إن تناول تعليمية اللغة العربية في الجزائر لم ينل حظا كبيرا من الاهتمام بين جماعات المختصين،على الرغم من تنوع و تعدد الاتجاهات التعليمية المعاصرة في المشروع التعليمي الجزائري،ولا يزال الفكر التعليمي عندنا حائرا بين فلسفة نظرية و مجالات التطبيق و أساليبه التعليمية ، و من ثم ظهر الكثير من أوجه النقص و الابتعاد عن نواحي الاكتمال في الوقت الحالي .

فالتعليمية هو علم يختص بدراسة أنجع الطرق في تحصيل اللغات،و يقابل هذا المصطلح في اللغة الفرنسية (didactique des langues enseignement didactique) .

أما التعليمي didactique فهي صفة تطلق على العمل الأدبي الذي يكون هدفه الأساس نقل رسالة سياسية أو أخلاقية أو دينية أو علمية مثال ذلك ـ ألفية ابن مالك في النحو(٦٠١ ـ ٦٧٢ ه) ،فهي تدخل في مجال تعليمية النحو و هو ما يسمى بقواعد النحو التعلمية التي يقابلها مصطلح didacticgramaire و المقصود بهذا المصطلح قواعد النحو التي تدرس في المدارس ، و التي تحاول إزالة اللبس عن علم اللغة من ناحية و تدريس اللغة من ناحية أخرى و ذلك بمحاولة ربط هذه القواعد اللغوية بالتجارب الواقعية للذين يستخدمون هذه اللغة و بالتالي الذين يتعلمونها .(١)

أما اللغة فيعرفها أبو الفتح بن جني في كتابه الخصائص ب:" أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "(٢)إن هذا التعريف يثير الكثير من الاهتمام بلا شك لأنه يشمل في بنيته أربعة عناصر أساسية مهمة ، و كل عنصر يمثل قضية كبرى من القضايا التي تناولها علماء اللغة المحدثين و تتمثل في المستويات الصوتية و التعبيرية و السياقية ،يقول ابن جني في موضع آخر إن النحو هو " انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب و غيره كالتثنية و الجمع و التحقير و التكسير و الإضافة و النسب و التركيب و غير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها من الفصاحة فينطق بها و إن لم يكن منهم و إن شذ قصدا ، ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم كما أن الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء أي عرفته ، ثم خص به علم الشريعة من التحليل و التحريم ..."(٣)

من خلال هذا يتضح أن العلامة ابن جني قد أولى عناية فائقة بعلم النحو في عملية تعلم العربية .

أما العلامة ابن خلدون فيركز على أهمية الملكة اللغوية فيقول : " اعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت و فسدت ، و لغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر،التي نزل بها القرآن،و إنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه ، إلا أن اللغات لما كانت ملكات ... و شأن التعليم لمن يبتغي هذه الملكة و يروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن و الحديث و كلام السلف ..."(٤)

يبدو أن ابن خلدون من خلال تركيزه على حفظ الكلام القديم الجاري على أساليب القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف ...الخ و ضرورة الاستعمال الصحيح مع ترسيخ الملكة و سلامة الطبع و الذوق،وكأنه يوجه حديثه إلى أهل العربية ممن فسدت فصاحتهم بسبب العجمة و هو الأمر الذي ينسحب على واقعنا اللغوي الراهن؟

١ -وظائف تعلم النحو العربي:

لتعلم النحو وظائف أساسية مرتبطة بما يقوم به في مجال ضبط الأداء اللغوي نطقا و كتابة و قراءة من بينها أنه يكفل سلامة التعبير و صحة آدائه و فهم معناه و إدراكه من غير لبس أو غموض ، كما يساعد على جمال الأسلوب و جودته و دقته.(٥)

إن تعلم اللغة العربية فضلا عن الوظائف العملية الآنفة الذكر يعصم اللسان من الخطأ في كتاب الله تعالى، حتى أن علماءنا الأجلاء أجمعوا على أن تعلم اللغة العربية فرض لأن فهم نصوص الكتاب و السنة فرض ، و من شروط المجتهد أن يكون عالما باللغة . يقول سبحانه و تعالى : (إنا أنزلنا قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (يوسف الآية ٢)، كما ذهب ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم إلى القول : " لم يكن سبيل إلى ضبط الدين و معرفته إلا بضبط اللسان، و صارت معرفته من الدين "و يقول أيضا ": " اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل و الخلق و الدين تأثيرا قويا بينا، و يؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة و التابعين، و مشابهتهم تزيد العقل و الدين و الخلق ، و أيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين و معرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب و السنة فرض، و لا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، و ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " (٦)

أما العالم الجليل ابن حزم فيؤكد ما ذهب إليه ابن تيمية و يقول : " أما النحو و اللغة ففرض كفاية لأن الله سبحانه يقول: (و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) (إبراهيم الآية ٤)، و قد أنزل القرآن على نبيه بلسان عربي مبين فمن لم يعلم النحو و اللغة فلم يعلم اللسان الذي به بين الله لنا ديننا و خاطبنا به " (٧)

٢- أهمية اللغة العربية :

و تعد اللغة العربية من بين اللغات الحية التي أسهمت إسهاما عظيما في الحفاظ على التراث الإنساني ، لما تميزت به دون غيرها من اللغات من ثراء معجمي و دلالي و اشتقاقي ، مكنها من استيعاب شتى المعارف و العلوم و الآداب ، يقول يوسف اليوسف : " إذا كانت اللغة العربية هي العقل متخرجا، و مدركا في آن واحد، و إذا كان مضمون اللغة هو مضمون العقل عينه، و خصائص اللغة هي خصائص العقل الذي أفرزها، فإن نظرية اللغة العربية هي أولا و كليا نظرية استيعاب العقل العربي في